آفاق القراءة وحدود التراث النقدي العربي عند مصطفى ناصف

مقاربة في نقد النقد

Reading Prospects and Limits of the Arabic Critical Heritage to Mustapha Nasif

ط.د حنان مسعودان
الدكتور: قادة يعقوب
قسم اللغة العربية وآدابها- جامعة أكلي محند أولحاج البويرة، (الجزائر)
مخبر دراسة نظرية و تطبيقية معمقة لتطبيق النظام L M D التعليمي الجديد في الجامعة الجزائرية بهدف تكوين أقطاب تنموية مندمجة، جامعة البويرة
hanane34islam@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/10/10 تاريخ القبول: 2021/03/22 تاريخ النشر: 2021/11/04

- **ملخص:** تسعى هذه الدراسة الى الكشف عن أعماق الرؤية النقدية وخصوصيتها للناقد "مصطفى ناصف" لإسهامه في طرح جملة من الإشكاليات المعرفية والمنهجية وخاصة تلك التي تتعلق بالقراءة النقدية والتراث لاعتبارهما من أكثر القضايا التي أرهقت كاهل النقد العربي. وتبعا لذلك فقد اختار الناقد قراءة خاصة يرى من خلالها خروج النقد العربي من غياهب التيه إلى مشارف النور بوضعه موضع الفحص والمساءلة.

الكلمات المفتاحية: القراءة، التراث، النقد العربي، مصطفى ناصف، مقاربة، نقد النقد.

Abstract:This study aims at examining and detecting the critical vision depths and its specificity according to a critic Mustapha Nasif , for his contribution in posing a set of cognitive and methodological issues ,especially those related to the critical reading skills and heritage, in which they are considered to be the most essential issues that burdened the Arabic critique ;subsequently, a critic has chosen a special reading through

which he sees a sort of dissenting the Arabic Critique from darkness into outskirts of light ,placing it under examination along with accountability

key words:Reading, Heritage, Arab critical, Mustafa Nasif, An approach , Metacriticism.

1. مقدمة:

تسعى المحاولات النقدية إلى استجماع أسسها، و تقوية أركانها النظرية والعلمية من خلال تدقيق البحث الذي يتّضح في سعي النّقاد الدائم نحو خلق تراكم معرفي، فالنقد يعدّ أداة من الأدوات المعبرة و المصححة والمقومة للأدب والنقد والثقافة على حد سواء، كما أن آلياته اختلفت باختلاف حاملي المناهج على اختلاف الإيديولوجيات والثقافات، ومن الإشكاليات التي وسمت النقد العربي هي إشكالية قراءة هذا النقد في حد ذاته بجذوره التاريخية وثقافاته المتشعبة وجسوره الممتدة عبر العصور، فقد تشكل القراءة الخاطئة للنقد العربي، وقضاياه خطرا على مسار النقد عموما في اللحظة التي يسعى فيها إلى التطور وفك قيود القراءات القديمة الكلاسيكية التي أبقته سجين الماضي و الراهن؛ لكن ومن زاوية أخرى قد تعطي القراءة الناقدة الموضوعية انفتاحا و دفعة نحو التطوير والتأسيس لنظرية نقدية عربية خالصة لا تشوبها الأزمات الحادة والاختلافات العقيمة التي لا تولد سوى أزمات أخرى تحول دون تطور النقد العربي.

تنوعت قراءات النقد العربي القديم والحديث في ظل المواجهة بين الثقافة العربية والغربية، والتأثيرات السياسية والثقافية التي مسّت التفكير العربي من جهة هيمنة الفكر الأجنبي الغالب بقوّة حضارته، فصار من الصعب تخليص النقد العربي وانتشاله باتجاه قراءة تعيد هيكلة مكوناته الفكرية في المنهج والمصطلح؛ تنظيرا وتطبيقا "فقد فُرض على الثّقافة العربية أن تبحث عن تجديد ذاتها بمنظور ثقافة الأجنبي الذي تشتبك معه في معركة التحرير السياسي والاجتماعي وهذا التناقض الذي رسم انطلاقة التحديث العربي هو ما أفرز في النّهاية مجمل أعراض الخلل والتردد و الإخفاق في مشروع النهضة العربية"[1]، بالإضافة إلى البعد عن التراث العربي أو قراءته دون وعي و دون تثمين لإنتاج النقاد الأوائل وكشف الجوانب المغمورة من مؤلفاتهم و أسفارهم النقدية، و من القراءات النقدية الحديثة نجد قراءة "مصطفى ناصف" للنقد العربي، فقد سعى في مؤلفاته إلى إيجاد مداخل تأسيسية ومخارج للأزمات المتلاحقة، وخاض في هذه الغمار حيث أخذ دراسته إلى منحى خاص تحت مسمى "القراءة الثانية" (The second reading) أو النظرة الثانية لقضايا النقد العربي عامة، فما معنى القراءة الثانية؟ وكيف نظر الناقد إلى التراث في قراءته؟ وما الأسباب التي جعلته يتخذ منحى ثانيا يرى فيه حلا لإشكاليات النقد العربي؟ وما عمق وجودة وطبيعة القراءة الثانية للنقد العربي عموما والتراث بشكل خاص؟ وبالتالي جوهر اشكاليتنا هو معرفة فعل القراءة لناصف وعلاقته بالتراث النقدي. وتبعا لما سبق لا بد أن نتّبع مقاربة نستطيع من خلالها الإجابة عن الأسئلة السابقة وما نراه مناسبا هو إتباع استراتيجيات نقد النقد الكفيلة بإيضاح ملابسات

هذه الدراسة من خلال استخدام أداة الوصف التي يرى فيها حميد لحميداني وسيلة للنظر في الاعمال النقدية.

2. في مفهوم القراءة والتراث النقدي:

عني الخطاب النقدي الحديث والمعاصر طويلا بإشكالية القراءة النقدية، وشغل بعدة قضايا كانت بؤرة توتر بين النقاد ومحل نقاشات، ومسائلات كثيرة، وقبل معرفة طبيعة القراءة عند "مصطفى ناصف" لا بد من معرفة ماهية القراءة بشكل عام، ومن ثم ماهية التراث النقدي.

1.2 مفهوم القراءة:

لا يختلف اثنان في أنّ مفاتيح العلوم هي مصطلحاتها؛ لذلك لابد من تفكيك عنوان بحثنا إلى وحدات لفظية لأجل تحديد المعنى المعجمي والاصطلاحي لكل مفردة. إنّ مصطلح القراءة هو ركيزة هذا البحث، فضلا على أنّه الأكثر تداولا وانتشارا في الدراسات النقدية والأدبية بحيث يمثّل معطى من معطيات الاتجاهات النقدية في العصر الحديث والمعاصر، فما القراءة؟

جاء في "أساس البلاغة": "قرأ: قرأت الكتاب واقترأته، وأقرأته غيري وهو من قرأة الكتاب، وفلان قارئ وقراء: ناسك عابد و هو من القراء"[2].أما في "المعجم الوسيط" فجاء بمعنى: "قرأ الكتاب قراءة، و قرآنا، تتبع كلماته نظر و نطق بها، و تتبع كلماته و لم ينطق بها، و سميت بالقراءة الصامتة...و الشيء قَرْءًا و قرآنا، جمعه و ضم بعضه إلى بعض"[3].

إنّ معظم المعاجم اللغوية أفادت أنّ القراءة تحمل معنى الجمع والضم وكذلك النطق والإبلاغ.

كما أن القراءة عرفت العديد من المفاهيم الاصطلاحية بحكم تغيير المعطيات وكذا مجالات استعمال اللفظة، و تطورها عبر العصور، لذلك سنحاول البحث في مجالنا النقدي الأدبي مفتشين عن ماهيتها النقدية، فالقراءة تستغور النصوص الأدبية وتبحث فيها عما هو محجوب وخفي و تسعى إلى فهمه واستخراجه عن طريق القارئ الذي ينفذ إلى باطن تلك النصوص بآليات متنوعة هدفها استكناه المعنى وتسعى إلى إنتاج نقدي هو في الحقيقة "انبجاس لتأليف جديد(...) وفضاء يفصل بين لحظتي فناء و انبعاث"[4]، فلحظة الكتابة تسبق لحظة القراءة لكنها لحظات تبادل لنفس الإنتاج، لأن القراءة والنقد بصفة عامة لم توجد إلا بعد النصوص الأدبية والإبداعية، وحضور القراءة زاد حظوظ تواجد الإبداع في صور مختلفة و متنوعة.

والقراءة كما يرى "سعد علوش" هي "فك كود الخبر المكتوب و تأويل نص أدبي ما"[5] ، وبالتالي فإن القراءة في هذا الصدد قد تكون في معنى التأويل لأن بعض الكتابات تكون غير مباشرة تحتاج إلى فك و قراءة من نوع آخر.

أما "رولان بارت" فيرى أن القراءة هي رغبة العمل " فمن رغبة إلى أخرى يمضي كل أدب وكم من كاتب لم يكتب إلا ليقرأ؟ و كم من ناقد لم يقرأ إلا ليكتب؟...فالنقد ليس إلا لحظة من هذا التاريخ الذي ندخل فيه و الذي يقودنا نحو الوحدة، و نحو حقيقة الكتابة"[6]، و عندما نقول القراءة لا نعني بها المعنى الشائع أو الجانب الآلي منها، بل نعني القراءة الناقدة التي تحتاج إلى تأنٍّ و دقة و كل ما ينطوي تحت العملية العقلية من إدراك و تحليل و مناقشة و منه يتوجب على القارئ في هذا المستوى من القراءة تحرير النص من القيود الآلية أو القراءة التقليدية، و عليه فإن القراءة النقدية إنتاج آخر يلي الإنتاج الأول عن طريق التفاعل بين القارئ والنص النقدي أو الإبداعي عبر آليات نقدية يختارها القارئ حسب ثقافته و أيديولوجيته الفكرية.

2.2 مفهوم التراث النقدي:

يشتق التراث من مادة (ورث) في المعاجم اللغوية، وتعني "أورث الرجل ولده مالا إيراثا حسنا، أورثه الشيء أبوه وهم ورثة فلان، ورثه توريثا، أي أدخله في ماله، على ورثته، وتوارثوه كابرا عن كابر وأورث الميت وراثه ماله أي تركه له، و التراث ما يخلفه الرجل لورثته"[7].

وقد وردت لفظة التراث في مواضع كثيرة في التنزيل الحكيم منها بمعنى الميراث في قوله عز وجل: "يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضيا"[8]. وفي سورة "الفجر" في قوله تعالى "وتأكلون التراث أكلا لما"[9].

إذن لفظة التراث في جانبها اللغوي تحمل معان متنوعة أهمها ما يتركه السلف من مال أو حسب وما يذخره الرجل لورثته.

أما في جانبها الاصطلاحي فقد خاض العديد من النقاد غمار معاني التراث سعيا منهم كشف و توضيح ماهية التراث عامة و النقد خاصة و الأخذ بالمفاهيم و المعاني الصحيحة لتقويم مسالك النقد العربي و فك اشكالياته المتجددة، فالتراث يحمل معاني تجعله دائما تحت المشترك الإنساني الحضاري فهو "جماع التاريخ المادي و المعنوي لأمة منذ أقدم العصور إلى الآن"[10]، أي إن التراث يُشكّل المجتمع الإنساني عن طريق التأثير و التأثر و تبادل الأقطاب المتنوعة بين مختلف الشعوب و الأمم عبر العصور المختلفة سواء عن طريق الحروب أو الفتوحات أو الترجمة أو

التبادل المباشر و غير المباشر، و هذا ما يجعل التراث من أكثر القضايا النقدية غموضا و انفلاتا، فكل ناقد أو دارس ينظر للتراث بمنظاره الخاص و برؤيته المختلفة عن الآخر فيجعلها إشكالية تصعب الإحاطة بها في النقد و الفكر العربي الحديث و المعاصر.

وقد نظر "محمد عابد الجابري" إلى التراث على أنه "العقيدة والشريعة واللغة والأدب والعقل والذهنية والحنين و التطلعات"[11] ، فاعتبره موروثا ثقافيا و فكريا و دينيا و أدبيا و فنيا و بالتالي فيه نوع من الخصوصية العربية التي لا تقبل التزييف و التحريف.

و في ذات السياق يرى "حسن حنفي" بأنه: "كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة فهو إذن قضية موروث و في نفس الوقت قضية معطى حاضر على عديد من المستويات"[12]، إذن التراث نتاج الماضي في جميع الميادين الفكرية و الدينية و الفلسفية و الأدبية والنقدية، و من ثمة فإن التراث في معناه الواسع والشامل هو ما خلفه لنا السلف من إنتاج فكري حضاري ثقافي، وصل للخلف عن طريق التراكم عبر العصور و الأزمنة في أمة من الأمم.

3. فعل القراءة في تجربة مصطفى ناصف:

يعدّ "مصطفى ناصف" من أولئك النقاد العرب الذين اشتغلوا بعديد القضايا النقدية العربية بمختلف الزوايا باحثا عن حلول للإشكاليات التي واجهت هذا النقد، ومحاولا بذلك تخطي أزماته و مطباته عن طريق رؤية جديدة يرى فيها الناقد منعطفا آخر ينعش و يصحح مسار النقد العربي عامة ويوصلنا إلى جوهره المنشود من خلال التأصيل والتأسيس لهذا النقد، آخذا موقفا من التراث باعتباره حجة وقضية أسالت حبر الكثيرين بين مؤيد ومعارض و متحفظ، و قبل هذا وذاك يسعى الناقد إلى شيء أعمق يحدد فارق الدراسة و المشروع النقدي لدى أي ناقد و هي "القراءة" أو نوعية القراءة النقدية و آلياتها عند الرجل، فكيف كانت هذه الأخيرة؟ وما المرجعيات التي اعتمدها في ذلك، وما الحيز الذي وضع فيه التراث؟ فقد أبان الناقد عن رؤيته بطريقة أوضح في مؤلفاته: (النقد العربي نحو نظرية ثانية)، و(قراءة ثانية لشعرنا القديم)، (محاورات مع النثر العربي)، و(صوت الشاعر القديم)، و(اللغة والتفسير والتواصل) وغيرها.

1.3 القراءة الثانية بين النظرية والتطبيق:

اختلفت القراءات النقدية الحداثية من ناقد لآخر تحت قاسم ووعي مشترك هو ذلك القلق و الشعور بالهوة بينه و بين النقد عند الآخر المتمثل في النقد الغربي الذي شعرت به الذات العربية، ومدى خطورته من خلال الصدمات التي عاشها هذا النقد، خاصة في فترة ما يعرف

بالنهضة التي تزامنت مع الحملة الفرنسية على مصر (1798)، فقد أحس المثقف العربي و بخاصة الناقد أن بينه و بين الغربي مسيرة سنوات في التحضر و الثقافة والوعي، و بحكم المسافة التي كان لا بد من تقليصها، أو على الأقل معرفة أسباب ذلك الرفاه الفكري و التحضر الثقافي والعلمي ، فكان لا بد من التفتيش عن الأسباب التي أنهكت النقد العربي و شلّت مفاصله الفكرية، هل هي أزمة مبدأ، أم أزمة منهج، أم أزمة مصطلح، أم أزمة وعي بالماضي الذي سحق تحت أقدام الأجنبي؟

في الحقيقة إنّ جميع هذه الأزمات وجدت مع الأسف في النقد العربي فكانت الأضرار أكثر و أشد، و قد رأى "مصطفى ناصف" أن أول الحلول هو معرفة نقطة البداية من خلال القراءة الثانية لمنجزات النقد العربي على مر العصور، لأن النتائج الأولى لم ترفع النقد، وبات من الضروري تغيير القراءة لتغيير النتائج من خلال "إعادة النظر في الماضي/التراث أو محاولة تأويله قراءته من أجل الحاجة الملحة لمحاورة الحاضر المتخلف في جميع القطاعات و على جميع المستويات أملا في المستقبل"[13]، مستقبل يحمل أفكار مغايرة بعيدة عن الجحود و التهميش والنفي و التنكر للواقع العربي و أصوله و مكوناته الاجتماعية و الثقافية و الإيديولوجية.

ناقش(مصطفى ناصف) قضية القراءة مطولا خاصة في كتابه "النقد العربي نحو نظرية ثانية" فقد اعطى لها اهتماما واسعا، واختار القراءة الثانية على وجه الخصوص ليقينه بقصور الأولى "فنحن محتاجون إلى قراءة ثانية لا تعتمد على ربط بعض البوارق بما استحدث بطريقة عشوائية تعفي على جوهر النقد العربي و مكانته في ثقافتنا"[14] بل إنّ هذا الجوهر هو يقين القراءة الثانية دون منازع من خلال الاعتراف بالنقد العربي القديم الذي يمثل ماضي الأمة العربية ثم التقرب منه من زوايا تختلف عن الأولى التي لم يجن منها النقد العربي غير القطيعة و التنكر للهوية.

و إن القراءة الثانية لدى الناقد هي بلا شك قراءة نقدية تثور على القراءات التقليدية وتتبع مسالك أخرى تحفظ المعنى و ترنو إلى نظرية نقدية عربية خالصة، دون الابتعاد عن شروط القراءة الضرورية و هي القارئ و القراءة الموضوعية في حد ذاتها التي مارسها الناقد عبر آليات رأى أنها الأنجع لتخطي مزالق النقد العربي وأزماته المتتالية، ومن ثمة فإن الناقد أراد أن يعالج النقد العربي بقراءة ثانية تخالف السطحية و تخالف القراءة الغافلة المتحيزة و كذا العجلة، لأنه على يقين بأن "أمور القراءة أخطر مما نتوهم حتى الآن، لا نتشكك في قدرات قلة من الباحثين و لكن الهوة واسعة بين كفاءات القلة و تيار القراءة العامة"[15]، و بالتالي يجب تدارك الهوة و تطبيب اعوجاج القراءة العامة أو تجاوزها إذا كان في القلة الخير للنقد العربي فيجب دعمها في مقابل العام الشائع الذي يلتبسه الغموض و تكتنفه السطحية.

و بذلك فقد أثث ناصف لقراءته الثانية عبر مؤلفاته الكثيرة و الغنية بالقضايا النقدية فنجده منظرا في كثير من الأحيان في كتابه "النقد العربي نحو نظرية ثانية" فعلى سبيل الأهمية نجد المصطلح النقدي من القضايا الكبرى الموجودة في الكتاب معالجا إياها بقراءته الخاصة التي تحاول استكناه الجوانب المظلمة في النقد العربي لاعتبار المصطلح النقدي الأكثر جدلا في حياة النقد عامة و إن المدقق فيما أتى به الناقد يستنتج محاولاته الرامية إلى إعطائنا أسس القراءة الثانية التي اعتمدها في مشروعه النقدي؛ و أهم هذه الأساس فكرة "الاتصال و الانفصال" التي ركز عليها في الصفحات الأولى للكتاب معتبرا إياه الآلية الأكثر نجاعة في ضم شتات النقد العربي وتمثل قطب الدراسة و مركز رحى القراءة، و الجدير بالتوضيح هو كيفية العمل بهذه الآلية؟ كيف نتصل او ننفصل لتحقيق نتائج موضوعية إن الاتصال و الانفصال يكون داخل و خارج النقد العربي " فقد اغتربنا عن النقد العربي أو بعض فصوله لأننا لم نستطع تقدير أهمية مصطلحات تبدو غريبة، إننا نريد أحيانا أن نعيش في دائرة ضيقة في عبارة أو كلمة أو اصطلاح"[16]، فمن الصعب تحديد ما يمكن الاتصال به و ما يمكن الانفصال عنه، و من ثمة فإن القراءة الثانية تعكف على حل هذه المسألة من أجل فهم صحيح للنقد العربي، و أوضح مثال على ذلك هو الثقافة العربية، فلا يمكن لقارئ النقد العربي أن ينفصل عن الثقافة العربية أو أن يغفل عن التطور الثقافي و مثالنا في ذلك المصطلح النقدي "فكل مصطلح مهم علامة على وجود شاغل جماعي يلبسه أكثر من لبوس"[17]، ولا يمكن الانفصال عن روح الجماعة العربية لكن يمكن الانفصال عن الفهم المغلوط لها أو القراءة القديمة التي تعرقل تطور النقد و المصطلح بما يكافئ الحاضر، و ككل ثقافة فإن ثقافتنا العربية تحتاج إلى مساءلة أيضا إلى تجربة ثانية تمكننا استغلالها بعيون حضارية متفهمة للواقع الراهن و هذه مهمة القراءة الثانية و مهمة الأجيال عبر العصور تكملة ما جاء به الأجيال السابقة عن طريق تقويم سلبياته و تنمية إيجابياته، هذا لا يدعو أبدا إلى الالتصاق بالثقافة العربية و عدم الانفصال عنها في مواقف أخرى على حد رأي "جابر عصفور" في قوله: "المحاولة تقوم على تعديل الأصول الأساسية ...و التعديل تكييف الأصول المعارضة و المتضادة على نحو يمكننا من التجاوب في بناء جديد كما يعني التنبيه إلى العناصر السلبية في هذه الأصول و استبعادها استبعادا يسمح لبقية العناصر الإيجابية بالتوافق مع عناصر إيجابية أخرى"[18]، و هذا ما أشار إليه مصطفى ناصف فهو يحذر من الاتصال الآلي ويحث على بعث النقد العربي و مصطلحاته و قضاياه عن طريق آخر غير الطريق المألوف.

وغير بعيد عن الاتصال والانفصال نجد ثنائية أخرى رأى الناقد أنها الأنسب في تخطي الصدمة الحضارية العربية، تأكيدا في ذلك على القراءة الثانية، و هي: الحوار و التفاعل هذه الثنائية التي تخدم القراءة الثانية.

إن الحوار يفتح آفاقا جديدة أمام الناقد و القارئ و يفتح تبعا لذلك مغالق أبواب كانت محكمة الإغلاق فيما مضى، و قد يكون الحوار جوهر التفاعل، فلا تفاعل من غير حوار لأنهما لا يعطيان النتائج المرجوة من غير استغلال صحيح، فكلاهما يكون على المستوى الداخلي و الخارجي أي داخل النقد العربي و الثقافة العربية في حد ذاتها، ثم علاقتها مع باقي الثقافات الأخرى، و الصحيح "أن التفاعل ضرورة حضارية لتجديد الثقافة العربية، لأن الإبداع لا يأتي بالوحي و الإلهام بمعزل عن العصر و الراهن و الثقافات المحيطة"[19]، و الوعي و الرؤية العميقة هي مناط القراءة الثانية ومن غير الممكن الانسلاخ عن الواقع و العصر و التطورات، و القارئ يحمل في يده زمام القراءة يستطيع بها الانغلاق و الانفتاح متى رأى ذلك ضروريا و صائبا.

و إن النظرية حسب "ناصف" حوار بين الماضي و الحاضر و إن الماضي و الحاضر لا يتوقفان عن الحركة و بالتالي يجب البحث عن الشق الثاني في كل الأزمنة من خلال إقامة جسر الحوار و التفاعل و النظر في شؤون النقد العربي في ضوء ثقافي تاريخي متغير و منفتح لا ثابت يكتنفه الجمود "و قد يؤدي الحوار إلى شيء من الفهم الثاني للنقد العربي"[20]، و بعث و إحياء لقضايا و مسائل أغفلت فيما مضى فعلى القارئ التحلي بروح المسؤولية بذات محاورة و فاعلة تقترب من روح العصر و لا تبتعد عن الجذر و الأصل، تحاور القديم و تتفاعل مع الحديث والمعاصر بعيدا عن التحيز الذي لا يمكن من الرؤية.

و إلى جانب ما سبق اتخذ "مصطفى ناصف" أطروحة الشك في قراءة النقد العربي ملحا على إعادة دراسة نقدنا العربي بطريقة ثانية لا ناكرا لأصول النقد و الثقافة العربية، بل سعيا لنظرية نقدية جديدة "فالنقد العربي أسئلة شديدة الأهمية يؤدي بعضها إلى بعض و كل فهم للمصطلح بمعزل عن الشعر والثقافة العربية جدير ببعض الشك"[21]، و مثالنا في المصطلح أو الاصطلاح بشكل عام؛ فالناقد يرى أنه ليس وثنا، أي لا يمكننا تقديس كل ما وصل إلينا، بل يجب مراعاة الاختلاف في جانبه الإيجابي الخادم للقراءة الثانية ثم يجب التفريق بين الوسائل والغايات من هذا المنطلق أراد "ناصف" تبني هذا الطرح، ليس من باب التشكيك المطلق أو الرفض للنقد العربي، بل من باب المسؤولية الموضوعية و القراءة النقدية الحذقة، لفتح أفق نقدي جديد ينير مسار النقد العربي، فأطروحة الشك تتيح للقارئ معرفة جوانب أخرى من قضايا أخرى فلا يمكن حقيقة التسليم بكل ما جاء به النقد العربي، لأن الظروف تختلف، و الناقد أخذ أطروحة الشك بشكل جدلي لا بشكل يقاطع و ينكر فيه النقد العربي "فقد برعنا في اتخاذ اتجاه واحد وبرعنا في تصور مفهومات مبسوطة السلطان لكننا هنا نعمد إلى استباق القلق الجدلي"[22]، فالقلق يعبر عن

صدمتنا الحضارية، ويمكّننا من الرؤية بشكل أوضح من خلال تمزيق حجاب الخوف والكسل والتحرر من الجبر الذي وضع النقد العربي في حلقة ظلماء.

نلحظ أن "مصطفى ناصف" من خلال ما سبق قد أخذ من عند "طه حسين" على الأقل فكرة الشك و أطروحة عدم تقبل الأفكار و القراءات الجاهزة ، إنه لم يأخذ من الرجل بشكل كلي و مطلق، لكن لا يخفى عنا أن الناقد قد تأثر تأثرا عميقا بـ"طه حسين" حتى لو خالفه في بعض القضايا، فالوسيلة واحدة لكن الغايات تختلف، فقد هدفت "قراءة مصطف ناصف إلى تمييز الأفكار بعضها عن بعض، فدلفت إلى اكتشاف بنية التفكير النقدي القديم، محاولة زعزعة هذا البناء و التشكيك في تجلياته"[23]، التي عالجت مسائل كثيرة على رأسها البلاغة، النثر، الشعر وخاصة قضية المعنى.

أما القراءة الثانية في جانبها التطبيقي فلا أوضح مما جاء به الناقد في كتابه "قراءة ثانية لشعرنا القديم" فقد درس ناصف الشعر العربي القديم لاعتبارات كثيرة أهمها نقاء الأدب العربي، و كما يقال الشعر لغة وديوان العرب، فكل القراءات السابقة تتسابق نحو دراسة و تحليل الشعر العربي القديم لإيمانهم بصدارته وأسبقية ظهوره مقارنة مع بقية الأجناس الأدبية فقد عرف الدارسون جل حياة العربي و عقليته و طبيعة تفكيره و أيامه و حروبه و نمط معيشته من تلك الأشعار، لكن الناقد هنا أراد مخالفة تلك القراءات السابقة ليقينه بضيقها في بعض الزوايا وإهمالها للبعض الآخر ، فالناقد يرى أن القراءات الحقة هي تلك القراءات التي تكسر الحواجز بيننا و بين قصيدة من القصائد، فعلى القارئ الإقبال على الشعر العربي القديم بعين ثانية لا تؤمن بالعسر و الانغلاق و بالتالي لا إيمان ضمني، بل السير نحو مبدأ الشك و حق القارئ في ممارسة قراءته بأوجه أخرى، و هنا نؤكد على ما تحدثنا عنه سابقا فمبدأ الشك مرتبط بشروط القراءة الثانية، لـ"ناصف" و "يكون من الخير أن نبدأ عصرا من التشكك في معظم ما نعرفه عن الأدب العربي"[24].

و الناقد لا ينكر نقاء الأدب العربي بما فيه الشعر العربي القديم، لكنه يرفض و بشدة القراءات أو الحواجز والقيود التي وضعت عليه، فلا يمكن للقارئ التوجه للنص الشعري بتلك الأحكام المسبقة و القراءات السطحية.

لا شك في أن النصوص الشعرية القديمة قُرأت من أبواب مختلفة و بمناهج متباينة لاسيما المعلقات بصفتها صفوة الشعر العربي القديم، و قد دأب "مصطفى ناصف" على قراءة عديدة القصائد الشعرية القديمة لتحقيق قراءاته الثانية و ليقينه أن جوهر القصائد لم يعرف

بعد و أن لنا فيها معان و دلالات لم تستخرج بعد، تحتاج إلى طرق أبوابها حتى يؤذن للناقد بالدخول من خلال قراءات مثمرة و بناءة و من تلك القصائد معلقة "طرفة ابن العبد":

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى و تجلد

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا و يهتدي

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفابل باليد"[25]

إلى باقي أبيات القصيدة التي أخذ الناقد منها الأبيات الأولى شارحا إياها مبينا أن القصيدة لا تغدو بكاء على الطلل، بل لها أبعاد أخرى تصف حال و أحوال الفرد الجاهلي بكل تفاصيله الاجتماعية و الوجودية، و في الوقت الذي ركزت فيه القراءات الأولى على الطلل و الأثر و الديار، فإن "ناصف" ركز على قرائن أخرى و أراد أنيبين الجهد العقلي و الخيالي للإنسان آنذاك، و أهم تلك القرائن "الوشم" فقد رأينا "فيه محاوله الذهن أن يثبت مادة الحياة و أن يدحض فكرة الزمن و أن يعطي العقل سلطة القصاص من التجربة و الماضي و الخطر"[26]، و هذا جزء من القراءة الثانية التي يحاول الناقد الأخذ بها، فلا يمكن تضييق الخناق على الشعر العربي القديم وأخذه مأخذ العاطفة، بل إن فيه ما يكفي لتأسيس عقل عربي متزن الرؤية بعيدا عن الأشكال التقليدية، و الناقد يحاول في دراسة الشعر العربي القديم خلق و بعث الجدل الموجود بين أبيات القصائد، فلم يكتب الشعراء القدماء عبثا، بل إن حولياتهم و أشعارهم تنم عن مخزون لغوي وفكري و حياة مليئة بالبحث عن سبل الراحة خاصة النفسية، و الملاحظ أن الشاعر لا يترك تقليد الطلل لكن لكل شاعر بعد ذلك شأن و مرام يريد أن يبلغه، فالفاتحة واحدة و المخارج تختلف، هنا يدخل بنا الشاعر من باب الطلل و يريد من ذلك حاجات أخرى مهمة القارئ البحث عنها بين تجاويف القصائد و مضامينها، و هذا ما أوضحه الناقد حين قال: "و إذا صبرنا على مواجهة القصيدة بادين بالطلل المقرون بالوشم أخذنا نفكر في ملامح الصراع بين الطلل و الوشم الصراع وبين الطلل و الناقة و الصراع بين الخمر و الطلل"[27]، إذن لا بد من الحوار و الصراع والتفكير من منظور ثان و إبعاد فكرة سذاجة و عاطفة الشعر العربي القديم بل إن فيه من أسئلة الوجود و الصراع الفكري الشيء الكثير الذي يخدم أدبنا الحديث و المعاصر.

و قد عالج "ناصف" في قراءاته لمعلقة "طرفة بن العبد" عديد القضايا التي ربطها بمشكلة المصير و الوجود و الموت و الزمن و الحرية و هذه قضايا بالغة الأهمية، تطرق إليها الشاعر الجاهلي و شغلت عقله في تلك الفترة البدائية بغض النظر عن أسلوب القصائد القديمة و المقدمات الطللية

فإن الإنسان الجاهلي التفت إلى عظمة الحياة و غموض الموت و إشكالية الزمن في أشعاره مما ولدت لديهم تارة حدس المقاومة و الصراع و البحث عن الحرية، و تارة أخرى الهروب من ذلك عن طريق الخيال.

2.3 التراث النقدي وجه مغيب أم حضور خفي؟:

دائما كانت قضية التراث سواء النقدي أم البلاغي أم الشعري قطرة أفاضت كؤوس النقاد والمفكرين، لما في القضية من خلاف وصراع وحساسية أفضت لمعارك نقدية عطلت في كثير من الأحيان مسار النقد العربي وتطوره أكثر مما أعطت له، لذلك كان لزاما منا معرفة حيز التراث النقدي وكيف نسير إلى هذا التراث.

لم يغفل "مصطفى ناصف" عن مشاغل التراث و قد رسم من خلال مشروعه النقدي حيزا له يمكننا من رؤية واضحة ثم السير نحوه بخطوات مدروسة؛ ذلك أن الناقد أيقن ان تفكير العقل العربي مجروح و لا ترياق له سوى المعرفة، معرفة حيز التراث النقدي في حد ذاته، بهويته و جوهره و إخراجه من التيه و الزيغ، فلا بد من وعي القارئ العربي بذلك كمدخل للتمكن من إزالة الضبابية إن لم نقل الظلام المخيم على ربوع التراث العربي، و الأهم معرفة الأزمة المتتالية على ماضي الأمة العربية باعتبارها المشكل الرئيسي لذلك التراث "لأنه يمثل كتلة كبيرة من الأعمال العائدة إلى الأزمنة العربية الماضية"[28]، و هذا يدعو إلى الالتفات إلى الماضي بعيون حضارة و بجسور مختلفة متعددة تبقي على روابط التواصل العربية، لكن مع الانفصال و الانقطاع في بعض المواقف، لأن العودة إلى التراث او حمله إلى الحاضر بكل علائقه يشكل صدمة خطيرة تخلط أوراق النقد العربي الحديث و المعاصر لاعتبارات عدّة أهمها النهضة و عواملها و التداخل الثقافي...

هنا أيضا يركز الناقد على الاهتمام بالتراث النقدي لكن ليس لحد القداسة و التمجيد بل "علينا أن نرجع من وقت لآخر لمعالجة قدمائنا لما أهمنا الآن من مشكلات"[29]، يتقاطع موقف "ناصف" في هذا الصدد بما جاء به "فريدريك معتوق" في قضية التفكير الغربي و تعامله مع تراثه فيرى بأنه غير مناط و غير ملتزم بكل ما يقدمه إليه هذا التراث، بل إنه "يختار فيه ما هو مطابق لحاضره و لا يعود بنفسه و بحاضره إلى هذا الماضي لأخذ بركته"[30]، من هذا المنطلق نرى أن حيز

التراث يتسع و يضيق بحسب احتياجنا له، و طريقة أخذنا منه، فلا يمكن اجترار التراث دون وعي بل يجب أخذ جواهره و نماذجه الخاصة لبناء حاضر نقدي متين.

و لعل جوهر النقد العربي فيما يرى ناصف هو (عبد القاهر الجرجاني) و أمثاله، فالناقد تحتاج مؤلفاته الى إعادة قراءة واحياء تنير جوانب أكثر من هذه الدرر، و الاقتراب منها اقتراب البحث لا الجمود الذي يقتل الفكر و النقد، و الجرجاني يمثل خلاصة النقد العربي خاصة في كتابيه "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" فقد بث فيهما ما يكفي من علوم اللغة و النحو و البلاغة و الأدب و الفكر، و إن تأثير الجرجاني في عصره و ما بعده له أسباب عديدة أهمها "تخليه عن جانب من فرديته ليكشف نسيج العقل العربي و تلاحمه و مقاومته و شموليته"[31].

ولا شك أن عبد القاهر يمثل جزء لا يستهان به من التراث النقدي العربي و يجب وضعه داخل أطر و حيز التراث العربي، و إن خير ما نتعلمه من الرجل هو الابتكار، فـ"ناصف" يرنو إلى وجود عبد القاهر في كل زمان و مكان في كل ناقد فينا، فالقراءة لا تقتصر على مؤلفاته بل على شخصيته التي جعلته في أعلى قمة النقد العربي، فالشيخ عالم ووسيلة و هدف في الوقت عينه، و على قول "ناصف" تحتاج أعمال عبد القاهر إلى إنقاذ من القيد الذي وضعت فيه هذا هو مسار القارئ أو الناقد نحو التراث عامة و نحو عبد القاهر بشكل خاص " فالتراث هو التراث نفسه، لا يتكرر و لا يتعدد...لكن معرفته هي المتجددة بقدر ما تتعدد البنى الفكرية التي بها يُقرأ التراث"[32]، هذا لب القراءة الثانية لناصف، و إن المعرفة و المسؤولية العلمية هي القراءة النقدية الناضجة و بقدر ما كانت الأولى صائبة كانت الثانية مثمرة.

و قد غيب التراث في حالات كثيرة و لأسباب عديدة نستطيع تلخيصها في تحميل التراث ما لا طاقة له به، حيث إن القراءات المعاصرة المتتالية أفقدته خصوصيته و جوهره، فالقضية إذا هي قضية منهج أيضا، فالقراءات المعاصرة التي قرأت التراث "جعلت منه مساحة تجارب لمناهج مستعارة تسقط عليه إسقاطا ترى فيه ما تريد لا ما هو كائن فيه"[33]، و الأصدق أن تكون القراءة والمنهج أبناء الثقافة العربية و أيديولوجيتها تراعي في ذلك كل خصوصيات المجتمع العربي و ثقافته، و هذا طبعا ليس دعوة للجمود و النكوص و إلغاء القراءات الجادة بل مباشرة التراث العربي من منطلق الملائمة المنهجية، و هذا تأكيدا على ما بثه "ناصف" في كتابه حيث قال: "إن الثقافة الأدبية المعاصرة ينبغي أن تسأل نفسها بطريقة ثانية عن فكرة المخاوف التي عنيت النقد و الثقافة الأدبية الموروثة"[34]، و هذا قريب جدا لما جاء به "الجابري" في كتابه "نحن و التراث" حيث أشار في مقدمة كتابه إلى العلاقة الجدلية بين المستقبل و الماضي أي بين الثورة و التراث فالمطلوب من الثورة إعادة بناء التراث، و المطلوب من هذا الأخير المساعدة في إنجاز الثورة.

وخلاصة ذلك إن "مصطفى ناصف" نظر إلى التراث نظرة ملائم يرى فيها أن التراث له حيز زماني و معرفي لا يمكن لأي قراءة أو منهج هتك أو هدم خصوصيته بل يجب انتقاء و مراعاة القرارات التي تتلاءم و التراث، و تخرج كل ما ينفع قضايا النقد العربي من أجل تخطي الراهن المأزوم.

4.خاتمة:

من كل ما سبق نخلص إلى أن القراءة النقدية تحتاج إلى قارئ صبور مطلع بكافة المتغيرات المنهجية و المعرفية في الساحة النقدية فيكون أكثر خبرة و مراسا و دربة ودراية بأصولها ليستطيع الوصول إلى جوهر القضايا النقدية العربية ومعالجة كافة مشكلاتها تبعا للمتغيرات الثقافية والمنهجية مع مراعاة الخصوصية الحضارية للثقافة العربية، و لا شك أن القراءة الثانية التي قصدها الناقد هي قراءة من نوع آخر قراءة تختلف في الآليات و الأدوات للخروج بنتائج تختلف عن تلك الأولى، و قد سعى الناقد في دراسته بكل اجتهاد إلى انجاز قراءة متكاملة في مشروعه النقدي، خاصة في كتابيه "النقد العربي نحو نظرية ثانية" و "قراءة ثانية لشعرنا القديم"، فنلمس في الأول حضور القراءة الثانية من باب التنظير و التأسيس، أما الثاني فله أبعاد تطبيقية بحتة من خلال قيامه بدراسة الشعر القديم ، و بين هذا و ذاك لا ينفكّ الناقد يتكلم عن التراث النقدي العربي عامة حيث نظر إله نظره الإلهام و الوحي، فلا هو قريب منه إلى حد القداسة و الجمود، و لا هو بعيد عنه إلى حدود الذوبان في الراهن، فقد أعطى للتراث صفة الوسطية و الاعتدال لاعتباره مصدر خصوصية الأمة و الثقافة العربية.

ومن خلال بحثنا هذا توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

القراءة الثانية بداية لتصحيح المسار المنهجي نحو سرح نقدي عربي محاوره بعض مؤلفات "مصطفى ناصف" خاصة منها كتابي "النقد العربي نحو نظرية ثانية" و "قراءة ثانية لشعرنا القديم" حيث إن الكتابين أحدها لبس حلة التنظير والآخر التطبيق مما يوضح فكرة الناقد الثانية ورؤيته العميقة لأن الكتاب الذي أخذ فيه نماذج شعرية للدراسة أولها إصدارا من الآخر الذي نظّر فيه النقد العربي أي إن الناقد من أولئك النقاد الذين ساروا على طريق واحد ولم يغير منذ بداياته هذا المسار بل دافع على أفكاره في كل مشروعه.

وتبعا لذلك فإن أهم ما سجلناه أن الحوار والتفاعل أهم آليتين للتقرب من التراث العربي النقدي، ثم معرفه الحيز الذي يمكن من خلاله الاتصال أو الانفصال عن القضايا التي

تلائم وتخدم النقد العربي الحديث والمعاصر. ويعود جزء من مسؤولية القارئ في تطوير ذلك المخزون وإدخاله إلى دائرة المعارف الحية.

و من جانب آخر نرى أن الناقد ركز في دراسته التطبيقية على الشعر الجاهلي لكثرة الخلافات حوله، و ربما لسبب آخر هو تتبع الناقد لـ "طه حسين" و تأثره بدراساته حول الشعر القديم، لكن مصطفى ناصف تبنى أطروحة الشك بطريقة غير مباشرة لا يلغي فيها التفاعل والحوار و الاتصال بالماضي.

وعلى العموم فإن هذه الدراسة بيّنت لنا أن القراءة والتراث يتصفان بالانفتاح في النقد العربي تجعل الآراء فيه مختلفة ومتصارعة، لكنها تغدو مساهمات ومقاربات نقدية فكرية عامة قد تفتح بابا آخر أمام نقاد آخرين تكون دراساتهم أكثر جدية.

5. الهوامش:

[1] محمد قراش، الخطاب القرآني و إشكاليات القراءة الحداثية، دراسة تحليلية نقدية، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2018، ص9.

[2] أبو لقاسم جار الله محمود، بن عمر أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تح: باسل عيون السود، ج2، دار الكتب العلمية،لبنان، ط1، 1998، ص63.

[3] مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004، ص752.

[4] محمد زغلول سلام، ابن الأثير ضياء الدين، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، ص86.

[5] سعد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985، ص167

[6] رولان بارث، نقد و حقيقة، تر: منذر عياشي، مركز الانتماء الحضاري، حلب، ط1، 1994، ص121.

[7] ابن منظور، لسان العرب، م15، دار صادر، بيروت، ط3، 2004، ص ص 189-190.

[8] سورة مريم، الآية06.

[9] سورة الفجر، الآية 19.

[10] سعيد سلام، التناص التراثي الرواية الجزائرية أنموذجا، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط1، 2009، ص15.

[11] محمد عابد الجابري، التراث و الحداثة، دراسات و مناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991، ص24

[12] حسن حنفي التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت، ط4، 1992، ص13.

[13] مصطفى بيومي عبد السلام، دوائر الاختلاف-قراءات التراث النقدي، ميم للنشر، مصر، ط2، 2015، ص9.

[14] مصطفى ناصف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، عالم المعرفة، الكويت، (د.ط)، 2000، ص9.

[15] ينظر: مصطفى ناصف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، ص136.

[16] مصطفى ناصف، المرجع نفسه، ص10.

[17] مصطفى ناصف، المرجع نفسه، ص10.

[18] جابر عصفور، المرايا المتجاورة دراسة في نقد طه حسين، الهيئة المصرية لطباعة الكتاب، القاهرة، 1983، ص148.

[19] فريال حسن خليفة، النقد ومستقبل الثقافة العربية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 2018، ص179.
[20] مصطفى ناصف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، ص22.
[21] المرجع نفسه، ص9.
[22] المرجع نفسه ص17.
[23] مصطفى بيومي عبد السلام، مرجع سابق، ص212.
[24] مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د.ط)، ص8.
[25] المرجع نفسه، ص157.
[26] ينظر: مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص159.
[27] مصطفى ناصف قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص159.
[28] فردريك معتوق، سوسيولوجيا التراث، شبكة المعارف، بيروت، ط1، 2010، ص11.
[29] مصطفى ناصف، النقد العربي، ص21.
[30] فردريك معتوق المرجع نفسه، ص15.
[31] مصطفى ناصف، النقد العربي، ص21.
[32] حسين مروة، تراثنا كيف نعرفه؟، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، (د.ط)، 1986، ص8.
[33] محمد عابد الجابري و آخرون، المواءمة بين التراث و الحداثة، المركز العربي للدراسات و أبحاث السياسات، بيروت، ط1، 2016، ص136.
[34] مصطفى ناصف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، ص22.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم
1. ابن منظور، لسان العرب، م15، دار صادر، بيروت، ط3، 2004.
2. أبو القاسم جار الله محمود، بن عمر أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تح: باسل عيون السود، ج2، دار الكتب العلمية،لبنان، ط1، 1998.
3. جابر عصفور، المرايا المتجاورة دراسة في نقد طه حسين، الهيئة المصرية لطباعة الكتاب، القاهرة، 1983.
4. حسن حنفي التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، ط4، 1992.
5. حسين مروة، تراثنا كيف نعرفه؟، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، (د.ط)، 1986.
6. رولان بارث، نقد و حقيقة، تر: منذر عياشي، مركز الانتماء الحضاري، حلب، ط1، 1994.
7. سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985، ص167.

8. سعيد سلام، التناص التراثي الرواية الجزائرية أنموذجا، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط1، 2009.
9. فريال حسن خليفة، النقد ومستقبل الثقافة العربية، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، (د.ط)، 2018
10. .فردريك معتوق، سوسيولوجيا التراث، شبكة المعارف، بيروت، ط1، 2010.
11.. مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004.
12. محمد عابد الجابري و آخرون، المواءمة بين التراث و الحداثة، المركز العربي للدراسات و أبحاث السياسات، بيروت، ط1، 2016.
13. محمد زغلول سلام، ابن الأثير ضياء الدين، دار المعارف، القاهرة، (د.ط).
14. محمد عابد الجابري، التراث و الحداثة، دراسات و مناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991.
15. محمد قراش، الخطاب القرآني و إشكاليات القراءة الحداثية، دراسة تحليلية نقدية، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2018.
16. مصطفى بيومي عبد السلام، دوائر الاختلاف-قراءات التراث النقدي، ميم للنشر، مصر، ط2، 2015.
17. مصطفى ناصف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، عالم المعرفة، الكويت، (د.ط)، 2000.
18. مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، (د.ط).